يسرى جابر
1998-5-11-5501-12

أعيدوا «سمعان» ليشارك في جنّاز أبيه!

اربعون يوما مضت على رحيل موسى جدع... لم تفارقنا صورته... ولا توقف صدى صوته عن المطالبة بالكشف عن مصير المخطوفين... أرى روحه ترفرف دائما فوقنا... تملأ الفراغ الذي احدثه غيابه وتحثنا على متابعة الدرب.

«ليلى» الصابرة، تحاول ان تكيّف نفسها مع وحدة مستجدة بفراق الشريك بعد فراق الوحيدا... تحبس دمعها، ترتسم على وجهها الهادئ ابتسامة تحاول ان تخفي حسيس الحرقة التي تعس داخلها، «ليلى» تنتظر اليوم إشارة من موسى، تخبرها «إذا كان مرتاحا في إقامته الحالية وإذا شافُن فوق»؟.

مات موسى جدع غصباً عنه، ودون قرار منه، لم يغافله الموت، لكنه طالما سعى الى تأجيله، لا حبا بحياة أذاقته مرّها الخالص، ولا خروجا عن الدين، وهو لولا إيمانه العميق لما امتلك القدرة العنيدة على متابعة البحث عن ولده «سمعان» وشقيقه «كمال» اللذين وقعا في شباك الخطف قبل ما يقارب الثلاثة عشر عاما. كل ما تمناه موسى ان يحظى برؤية ولده ولو لمرة واحدة، عائدا من المجهول، ممسكا بيد عمه، فيرحل عندئذ مطمئن القلب والبال... ينسحب ويترك لشريكته «ليلى» كل الحب المخبأ في حناياه تجاهها... تتقاسمه و«سمعان»، وكل الفرح باللقاء الكبير... ملمّحا عن رغبة لاستذكاره وإشراكه في بعض من هذه اللحظات، علّه ينعم بالراحة في القبر بعد ان هجرته في الحياة.

فهل اتصالح مع الموت يا «موسى»؟

افتقدت صوتك صبيحة هذا العيد، انه «الاضحى»... لم تفتك مناسبة واحدة إلا وبادرت بالتهنئة والتمني لي بلقاء الحبيب في العيد المقبل.

مرت آحاد ثلاثة واربعة دون ان يوقظني صوتك على الهاتف معتذرا عن الازعاج مبرراً ذلك بأن كومات القلق التي تضغط عليك وتضاعف مرضك هي التي تقودك الي في يوم عطلتي اليتيم... تكرر الاعتذار وتفرغ سيلا من التساؤلات والاقتراحات والاستهجانات وقليلا من الارتياح لخبر قرأته في جريدة او سمعته نقلا عن... او بيان نشرته لجنة الاهالي، او ترقب لتحرك مقبل، او تحريض للقيام بشيء ما في سبيل ابقاء قضيتنا حية.

أجّلتُ زيارتك في المستشفى يوما بعد يوم... ولم تقدني قدماي إليك... ربما رفضا لرؤية انابيب الاوكسيجين تتنفس بدلا عنك...

ربما هروبا من صمت كان سيخيّم على اللقاء قدلا تقطعه سوى دموع حيرى.

ربما تلافيا لمشاهدتك ممددا في السرير... وأنا لم اعتد الحوار معك إلا جالسا او منتصبا... نعم منتصبا رغم الانكسار الذي طال منك الخاطر والظهر... فانحنت القامة المشوقة حتى كادت تلامس الأرض... كأنها تودّ تقبيلها طلبا لرحمة لم تجدها لدى البشر...

استقويت على ذاتي وادخلتها الى كنيسة «سيدة المعونة» في منطقة «فرن الشباك»... وانحشرت بين جموع المشيّعين على أمل ان يكون الله في عوني لجهة الانضباط العصبي والعاطفي، ولجهة عدم ارتكاب اي خطأ بروتوكولي على اعتبار انها المرة الاولى التي اشارك فيها بجنّاز.

كنت تملأ المكان بالرغم من اقامتك القسرية داخل ذلك الصندوق الخشبي المغلق. رأيتك ترصد الوجوه وتعدّها... استوقفك متطوعو الصليب الاحمر اللبناني بالدرجة الاولى، ربما لان لباسهم البرتقالي اللون كان فاقعا بين الكتل السوداء المنزرعة على المقاعد والمحدقة بالزوايا والنعش...

ربما لأنك كنت تفتش عن «سمعان» بينهم... وربما رأيته يتكرر في كل منهم... ولمّا لم تلمح وجهه صرخت بأعلى الصوت «أعيدوا سمعان ليشارك في جنازتي»!.

لم أعد اسمع صوت الكاهن الحاضر لاداء مهمته الكنسية... هو يصلّي عليك بطريقته وأنت تلقي على الحاضرين عظة من نوع آخر، اخبرتنا حكاية الخطف من أولها من خلال سرد قصة حياتك والمعاناة، تكلمت بإسهاب عن حقوق الإنسان وكيف انتُهكت في بلادنا وما تزال.

أطلعتنا على المجلدات التي كوّنتها من خلال جمع وتوثيق كل ما كتب في الصحف والمجلات المحلية منها والاجنبية عن قضية المخطوفين.

لم نستطع احصاء الرسائل والنداءات التي اطلقتها في كل مناسبة وذكرى الى المسؤولين في الدولة وفي الاديان، والى القيمين على مؤسسة الصليب الاحمر اللبناني.

أخبرتنا عن الاتصالات التي أجريتها والتي كان آخرها لقاء مع السيدة الاولى في دار رعايتها لمرضى التلاسيميا... ونقلت لنا عينة عن «اللارعاية» لقضيتك، نقلت لنا الخيبة تلو الأخرى مما كنت تحصد، والتي زادت ايامك سوادا وجسدك وهناً ومرضاً.

ذكّرت جميع رجال الصحافة والاعلام المرئي والمسموع الذين تمكنت من الاتصال بهم، راجيا إياهم أن يولوا هذه القضية الإنسانية والوطنية ما تستحق من اهتمام، ولم تتوانَ عن الاتصال شاكرا بعضهم ممن اجرى مقابلة مع احد اهالي المخطوفين، او تحقيقا عن المخطوفين وآخر اتصال كان مع «زياد ماجد» في جريدة «النهار»، اسألوه... اسألوا «مي عبود أبي عقل»، اسألوا ألفت سعد، ثم تنحنحت وأشحت بوجهك كي تخفي عينين اغرورقتا بالدمع، تلعثم الصوت وخرجت كلمات الوداع مثقلة تعبة «كان بودي ان اشكركم جميعا لو لم تأتوا الكنيسة هذا اليوم لوداعي... بل لو سرتم بدلا عن ذلك، في الشوارع احتجاجا على جريمة الخطف... لو قابلتم مسؤولا طالبين منه تحمل مسؤولياته... لو رفعتم عريضة تناشد برفع الظلم عن المخطوفين وذويهم، لو أضأتم شمعة للمخطوف تحيي فينا بعضا من الامل في عودته بعضا من الامل في معرفة الحقيقة، وحتى ذلك اليوم، يبقى شكري لكم معلّقا... واحتجاجي معلنا!.

وداد حلواني